

# الكابوس

قصة بقلم أنيس زكي حسن

عدها بالضبط . وبدأت الاحظ شيئاً فشيئاً انني كنت اكتسب قسوة جديدة ، ولم اعد اعثر كلما قفزت على الحواجز الخشبية ، بل انني كنت انمو باستمرار وكان الآخرون يكبرون مثلي ايضاً . وفي مرة من المرات ظهر النور وتبدد الظلام وتجمع الآخرون عند الحاجز الخشبي بانتظار الطعام ، واذا بالرجل يخضر على غير عادته . فلم يكن يعمل طعاماً وانما كان يحمل عصا طويلة راح يدها بيننا ويخيفنا بها ، وكان الآخرون يهربون في الاتجاه البعيد عن العصا . وكنت انا ارقب ذلك كله من مكاني فوق الحاجز الخشبي واستطعت ان ادرك ما كان الرجل يفعله . كان يقود الآخرين نحو باب واسع يتدفق النور منه رائحة مفدفا . وحين اكتشفت ذلك هرعت بدوري واجتذرت اولئك الذين سبقوني وانا اترنم فرحاً ، ووقفت عند الباب بضع لحظات ، مبهوراً بذلك القرص الساطع الهائل الذي كان يحملني في عيني من بعيد ، وحين اعتاد بصري عليه واستطعت ان افتح عيني وانظر حولي ، اكتشفت دنيا جديدة لم اكن لاحلم بها من قبل . كانت هناك حرية شاسعة واسعة فوقي وحولي ، وفضاء ازرق العمق ضاعت فيه عيناى الصغيرتان ، وكانت الارض تمتد في كل اتجاه ، هائلة الاتساع ، خضراء نظيفة ، يتلالا فيها العشب تحت وهج ذلك القرص العظيم . وكان الهواء منعشاً ممتراً ، يملأ صدري بنشوة غريبة . وبلغ بي الذهول والمتعة مبلغهما ، فطفت اقفز واهتف بأعلى صوتي دون ان ادرك انني كنت ابتعد عن زملائي الذين كانوا ما يزالون واقفين عند الباب يبحثون في الارض عن الطعام . وعجبت من امرهم . فلم اكن لافكر في تلك اللحظة بطعام او شراب ، وانما كنت استمتع بما كان حولي من الروعة والجمال والسحر ، ولم اكثر لهم ، كما أنهم لم يكثروا لهناهي ، ومضيت اقفز هنا وهناك فرحاً منتشياً مقتبلاً .

كانت تلك لحظة رائعة عرفت خلالها اشياء كثيرة اهمها انني كنت حراً ، وانني كنت ادرك حريتي تلك . ومرة فترة ، ثم رايت الرجل يفادر الباب بعد ان قاد زملائي جميعاً امامه وسار وراءهم وهو يستحثهم بعصاه نحو باب اخر قريب ، وما هي الا لحظات حتى اختفى الجميع في الداخل ، ووقفت انا في مكاني البعيد ذاك حائراً لا اعرف ماذا اصنع . فلم اكن لاستسيغ السجن من جديد بعد ان ذقت طعم الحرية ، ولم يطب لي ان اغادر ذلك الاتساع الهائل حولي . وبعد قليل ، خرج الرجل وحده من الباب واغلقه خلفه زملائي وراءه ثم سار نحو باب اخر وفتحته ودخل ، ومرة فترة اخرى ثم خرج حشد من الصغار ، الذين يشبهونني حين كنت صغيراً ، وكان الرجل يسير خلفهم وهو يستحثهم بعصاه ايضاً ، وادخلهم الى القاعة التي خرجت منها انسا وزملائي ثم خرج واغلق الباب خلفه وسار مبتعداً حتى غاب عن بصري . الان اسقط في يدي . فلم يعد في وسعي ان اعود الى الآخرين حتى لو رغبت في ذلك ، وآنذاك هاجمتني مشاعر مختلفة محيرة اذ شعرت بوحشة مملية ، وانصر قلبي خوفاً ولهفة ، ثم ان الجوع بدأ ينهش في امعائي ، واحترق بلعومي من العطش ، ورجعت ابحث في الارض عن شيء من الطعام ، واشد ما اسعدني انني وجدت بعض الطعام هنا وهناك ، ومضيت اليهم ما كنت اعثر عليه من اشياء كانت جديدة علي ، ولذيذة ، غريبة المذاق . وبينما كنت اتجول على العشب الاخضر الندي عسرت على بركة صغيرة مملوءة بماء اسود ليسر كالماء الصافي الذي كان الرجل

قال لي وهو يتأملني ملياً ، وصوته يفيض بالاشفاق والمطف :  
- ما الذي جاء بك الى هنا ؟ انت ما تزال صغيراً !  
فقلت ، وانا ما ازال انظر حولي مندهشاً مما كنت اراه في تلك الغرفة الصغيرة العجيبة :  
- انها قصة طويلة .

فقال :  
- لا بأس في ذلك . اظن ان ما بقي من الوقت يسمح لنا بان نروي بعض القصص . فالمدد كبير اليوم ، وسيطلب الامر وقتاً طويلاً . ومن يدري فقد لا يحل دورنا الا بعد ان يموت الجميع !  
فنظرت اليه بحيرة وقلت :  
- ماذا تعني ؟  
الا انه اهمل سؤالي وقال باصرار :  
- اخبرني بقصتك ، وسأخبرك بما اعنيه فيما بعد . كيف جئت الى هنا قبل الان ؟

فقلت له وانا انصرف اليه تماماً ، لاروي له ما حدث لي ، ولابعد عيني عن المناظر المفزعة التي كنت اراها حولي في الغرفة ، من الآلة الفامضة الرهيبة ، الى الرؤوس المقطوعة ، والدماء النازفة والسيقان المرتجفة الراقصة ، والرجال المحتشدين :

- لا أستطيع ان اذكر الان كيف بدأ الامر كله ، ولكنني أستطيع فقط ان اذكر ذلك المكان الغريب الذي اكتشفت نفسي فيه مع المئات من امثالي . كنا نحنشد في ساحة واسعة مسورة ارضيتها طينية رطبة مكتظة بالاقذار ، تحيط بها جدران عالية فيها نوافذ واسعة ينفذ منها بين حين واخر ضوء باهر ما ان يتسلسل عبر اجفاني الطبقة الحاملة حتى افتح عيني واشمر بخوفي يتبدد وبمرح غامر يملأ جوانحي ورغبة عارمة في القفز واللعب وتناول الطعام ولكن ذلك النور لم يكن يستمر دائماً ، وانما كان يختفي بعد فترة من ظهوره في كل مرة ، وسرعان ما تفرق تلك القاعة العجيبة في ظلام مخيف مرعب يفزعني فأغمض عيني واخفي نفسي بين الحشد حتى يزرغ النور من جديد .

وكان هنالك رجل يحضر مع ظهور النور في كل مرة وهو يحمل وعاء كبيراً يفترف منه الطعام ويكوم على مقربة منسا فنهرع فرحين قافزين متنافسين على الاماكن القريبة من الاوعية وناكل وناكل حتى تسمى تصيبنا النخمة ثم نشرب الماء الملب الذي يحمله الينا فيما بعد ويملأ بسه اوعية اخرى يضمها قرب اوعية الطعام .

وكنت استيقظ قبل الآخرين كلما شعرت بظهور النور وندغدغته الحلوة لاجفاني المطقة فاقفز على الحواجز الخشبية العالية واصرخ بأعلى صوتي وانا اكاد اطير من الفطة ، واوقف الآخرين وانفسي لهم بما احس به من نشوة واستمتاع بذلك الشماع الرائع . ولكنهم لم يكونوا ليكثرنوا لشيء غير الطعام والشراب . وكانهم لا يرون الشماع ولا يحسون بذلك الشعور البديع الثيسر . فينتكأون قرب الحاجز الخشبي في انتظار الرجل واوعيته .

وكنت اصفي لاصوات اخرى تصدر من مكان قريب ، اصوات اقوى من اصواتنا واخشن ، واسأل الآخرين عنها ، ولكنهم كانوا يقولون لي انهم لا يسمعون شيئاً وانني لا بد ان اكون حالماً .  
وتكرر ظهور النور واختفاؤه مرات ومرات لا أستطيع الان ان اذكر

يأتي به الينا . ولم اجد بدا من الاكتفاء بذلك الماء فشربت حتى ارتويت، ووقفت بعد ذلك انظر حولي لاستكشاف المكان بمسد ان مللت الطعام والشراب .

كانت هنالك ابنية كبيرة شاهقة تنظم في صفوف على طول طريق تتوسطها وتنتج نحو افق مجهول . وكنت اسمع اصواتا كثيرة خلف الجدران . لا بد ان هنالك الاف من امثالي خلفها ولكن الابواب كانت مغلقة ، ولم يكن في وسعي ان امر الى داخلها . وبينما كنت اتأمل في كل ذلك لاحظت ان قرص النور الهائل كان يضعف ويهبط بعيدا وراء الارض ، فادركت بغز شديد ان الظلام سيحل بمسد قليل ، الظلام المرعب المخيف . فماذا ساصنع وحدي ؟ ورحت اتدب حظي والسوم نفسي على طيشي وتسرعني . وكان القرص المنير الهائل ما يزال يسرع في الهبوط خلف الارض ويكاد يختفي شيئا فشيئا ، وفي الناحية الاخرى كان الظلام يسير بخطى وثيدة ثقيلة ، سوداء ، مقلبا كل شيء بوشاح هائل من الرعب والحيرة . وبلغ بي الفزع مبلغه وطفقت افقرز يمينا ويسارا باحثا عن زاوية اختفي فيها ، وحاولت مرات ومرات ان اجد لي منفذا عبر الابواب والنوافذ لاعود الى زملائي ولكنني لم اوفق في محاولاتي ، واخيرا لمحت صفيحة فذرة سوداء منكفة على جانبها فهرعت نحوها والظلام يطبق شيئا فشيئا على كل شيء حولي ودخلت فيها وحشرت جسمي في قعرها ملتصقا بجدرانها وزواياها وانا ارتعد خوفا ، ولم استطع ان اغمض عيني في الظلام ، وانما كنت احملق فيه وكانني كنت استشعر خطرا قريبا او كارثة اكيدة . وتصورت في حالتي تلك ان زمن القسطة والمرح قد انتهى وان النور لن يظهر مرة اخرى ابدا وان حريتي كانت عبئا ثقيلًا هائلا لم يكن في وسعي احتماله ، ورحت افكر في ذلك الاطمئنان الذي كنت اشعر به الى جانب زملائي ، حين كنت ادفن نفسي في دفاة اجسامهم المتصقة المتقاربة ، وزاد من ياسي وكابتي شعوري بان الظلام قد ظل وقتنا طويلا ، دهرًا كاملا بلا نهاية ، وبينما كنت اتوقع الشر بين حين وآخر ، وانتظر ان يهجم علي ذلك الشيء المجهول الذي كنت افزع منه ، استولى علي النعاس وشمل اطرافي التعب والترقب فاغمضت عيني اخيرا ، مستسلما يانسا ، ثم انتبهت فجأة ، وادركت ان النور كان يداعب اجفاني من جديد ، وتمهل قليلا غير مصدق ، ثم تشجعت وفتحت عيني ، ولشد ما كانت غيظتي عظيمة حين ادركت ان النور قد عاد حقا ، وان الحرية لم تكن سيئة الى ذلك الحد ، وان كل شيء ما يزال جميلا ، رائعا . ومددت قدمي بعذر وتردد وقلق ، وخرجت من الصفيحة الى الدنيا من جديد ، وغمرني السماع بدفئه وسطوعه ، وكان القرص الواسع المضي يتالق مسرة اخرى ، ويفمر العشب حولي بلالانه .

وانطلقت ابحت في العشب عن شيء آكله ، وكنت موفقا في بحثي . اذ عثرت على الكثير من الطعام الشهوي القريب الذي لم اكس اجده في اوعية الرجل ، وحين شبعتم انطلقت نحو بركة الماء وشربت منها حتى ارتويت ، ثم سرت على مهل بين صفوف الابنية وانسا اصفي للاصوات المهمة الفامضة التي تصدر من داخلها ، وراء الابواب المغلقة ، وكان المكان خاليا ، ولم يكن هنالك اي اثر للرجل . مساكين زملائي ، فلا بد انه لم يحضر لهم الطعام بعد ، وبينما يتكاثرون الآن عند الحواجز الخشبية ينتظرون الاوعية بفارغ الصبر ، حبيسي الجدران العتمة ، والارضية القفرة الحافلة بالفصالات والتنن والصفونة ، استمتع انا بالحرية ، وبالنور ، وبكل ما اريده من طعام وشراب . صحيح اني دفعت الثمن غاليا في ذلك الظلام الرهيب ، ولكن خوفي تبدد الآن ، ولم تبقى غير نشوتي بحريتي ، مع انها تمتزج في اعماقي بحنين غامض الى رؤية زملائي قليلا ، والقفز والمرح والعبث معهم في مستقرهم الجديد .

وبينما كنت اسير على الامر ، لاحظت انني كنت اقترب من نهاية صفي الابنية ، وفي تلك النهاية رايت الباب الاخير مفتوحا . وسرني ذلك سرورا عظيما . فسيكون في وسعي اخيرا ان احقق رغبتني في رؤية بعض زملائي واعدو للاستمتاع بحريتي في نفس الوقت . واقتربت

من الباب بعثر ، وسمعت اصواتا خشنة غير مالوفة الوقع في اذني ، تصدر من الداخل ، ومددت رأسي ونظرت ، وكانت عينايا ما تزالان مبهوتين بالنور ، فلم ار شيئا في اول الامر ، وما هي الا لحظات حتى اعتدت على جو القاعة المظلم ، ورايت الحواجز الخشبية ذاتها ، ولكنني لم اجد زملائي خلفها ، وانما وجدت آخرين ، اضخم مني بكثير ، ينهمكون في تناول الطعام بشراهة ، ويتشاجرون فيما بينهم بعنف وشراسة . ومع ذلك اقتربت منهم ، ولاحظت ان الحواجز مسورة بشباك لا يستطيعون ان يمروا منه ، فوقفت انظر اليهم ذاهلا ، ولم يكن احد منهم يبدي اي اهتمام بي ، وانما كانوا منصرفين الى الطعام والشراب والشجار فيما بينهم ، وكانوا يفعلون بعض الامور المخجلة ايضا .

وفجأة دخل الرجل وكان يحمل بيده عصاه التي كان في نهايتها قوس عجيب ، وحين رأني لاحظ عليه الدهشة والانفعال ، وسمعته وهو يصرخ بكلام لم افهم معناه ، واقترب مني ، ففزعت وانطلقت هاربا ، ولكن عصاه امتدت نحوني فجأة ، واذا بالقوس الذي في نهايتها يلتف حول ساقي ، وما هي الا لحظات حتى امسكت قبضة الرجل القوية بساقي ، فصرخت عاليا ، ولكنه لم يكثر لصراخي ، وراح يمد عصاه بين الآخرين الذين كانوا ما يزالون يتشاجرون ويتنافسون على الطعام واجتمع معي في قبضته عدد منهم لم استطع ان اميزه ، فقد كانت سيقاننا محتشدة بين اصابعه الضخمة المتقبضة عليها بعنف مؤلم . ثم سار الرجل ونحن نتدلى من يده ونصرخ صراخا عاليا ناقبا ، ودخل بنا الى غرفة ضيقة اجتمع فيها عدد من الرجال حول لوحة خشبية ممدودة ، وبراميل فيها حفر عميقة ، وشيء رهيب يدور بسرعة ، وكانت هنالك زاوية صغيرة مسورة القى بنا فيها .

وما ان تحررنا من قبضته حتى انطلق زملائي الجدد يقفزون ويبحثون في الارضية عن الطعام ، ينهش بعضهم بعضا ، بينما وقفت انا في الزاوية انظر الى ما كان يجري حولي ، حين اقتربت انت مني . والان ، تلك قصتي ، فاخبرني بالله ماذا يجري في هذه الغرفة المخيفة ، وما الذي كنت تصنيه حين قلت ان الوقت يسمح لنا بتبادل القصص وان دورنا سيحل بعد ان يموت الجميع ؟

فقال لي زميلي الكبير ، وهو ينظر حوله في الغرفة :

- لا ادري اذا كان الوقت يسمح لي بان اخبرك بشيء حقا .  
انظر ! انه قادم .

ونظرت ، ورايت الرجل يقترب منا ويمد يده ويقبض على زميل اخير من زملائي الجدد الذين كانوا ما يزالون منهمكين في تناول الطعام والقفز واللعب والشجار ، ثم يسير به نحو برميل مسن البراميل ، ورايته يمسك في يده الاخرى بسكين طويلة ، ويمدها الى رقبته ، ثم رايت الدم ينزف من الرقبة المقطوعة ، وما هي الا لحظات حتى كان ذلك الزميل ملقى في فوهة دائرة من دوائر البرميل العميقة ، ترتفع ساقاه فقط الى اعلى وهما ترفسان بعنف . فسالت صاحبي والرعب يتملكني :

- ماذا فعل ؟ لماذا يصنع به كل هذا ؟

فقال بكابة :

- لقد فعل كل شيء . . . اكل وشرب وتشاجر وتماق واحب وكره كثيرا . . . والان فما هو يموت . قلت لهم ذلك ولكنهم سخروا مني وانصرفوا الى تناول الطعام والشجار باستمرار . وكان هذا اشدهم سخرية !

فقلت له فزعا :

- يموت ؟ ماذا تعني ؟

فقال :

- انه يموت . . . ينتهي . . . لقد ذبحوه . . . وهؤلاء الرجال ينتظرون لحمه . انرى تلك الآلة الرهيبة التي تدور ؟ انظر !

ونظرت ، فرايت الرجل يقبض على زميلنا المسكين من جديد ، ولم يكن يتحرك آنذاك ، وانما كان رأسه ملتويا احمر من الدم النازف ،

- التتمة على الصفحة ١٠٣ -

## الكابوس

- تتمة المنشور على الصفحة ٤٨ -

وعيناه جامدتين ، ويضعه في وعاء كبير تتصاعد منه الإبخرة ، ثم يخرج منه بعد قليل والماء يقطر منه ، ويذهب به نحو الدولاب الكبير الذي كان يدور بسرعة ويضعه فوقه ، فتضرب الرؤوس المطاطة الدوارة جسمه ضربات متتامة وتسليخه ، فيتحول في لحظات الى قطعة من اللحم . ثم يقذف به الى امرأة في يدها سكين ايضا ، ومسا ان تلقفته حتى قطعت اوصاله واخرجت احشائه ثم وضعته في كيس لناع شفاف . وقال صاحبي مستأنفا كلامه :

- لقد مات . انظر الى زملائنا . انهم لا يدركون ذلك ، وقد رفضوا الاصفاء الي حين اخبرتهم بما يحدث حولهم من امور هائلة . وهم ما يزالون يتشاجرون ويتصارعون ويتشبهون الارض بحثا عن الطعام، انهم لا يفهمون .. ولكن سيأتي دورنا قريبا . سينتهي كل شيء . كل شيء ..

فقلت له وانا ما ازال مصعوقا :

- اتعني انهم سيدبحوننا نحن ايضا ؟

فقال وهو ينظر الي بطف واشفاق :

- الذي يحزنني هو انك ما تزال صغيرا ، ولم تعيش حياتك بعد . انظر ماذا فعل بك حبك للحرية . كان عليك ان تجتاز مراحل حياتك كما فعلت انا وترضى بقيودها الصغيرة ومتنها المحدودة ، فتنتقل من باب الى باب ، من بيت الى بيت ، من حياة الى حياة ، ومن يدري ، ربما كنت ستوفق مثلي ، فقد عشت حياة حافلة بالحب والمرح ، وكردت كل شيء الف الف مرة حتى مللت ولم اعد اريد المزيد من هذا التكرار ولم يعد في وسعي على كل حال ان استسيغ الحياة الان ، بعد ان ادركت النهاية وعرفت ما ينتظرنا من مصير ...

وبينما كان صاحبي يتحدث ، امتدت قبضة الرجل اليه ، وابتعد به نحو البرميل ، ونظرت اليه فرأيت عينيه وهما تحملتان في عينه بنظرة حزينة كئيبة يأسا ، ثم امتدت السكين الى رقبته ، وممرت

لحظات ، واختفى جسمه . أراجف المرتعد في البرميل ، وظلت ساقاه ترفسان ، وممرت المشاهد كذلك ، وكان عدد الرجال في الغرفة يتناقص شيئا فشيئا ، وهم يقادرونها حاملين زملائي في اكياس لناع شفاف . ولم يبق احد في الغرفة غير الرجل ، كما لم يبق احد في الزاوية غيري انا ، ثم سار الرجل نحوي وقبض على ساقي ، وشعرت بشلل غريب يتسلل الى كياني ، وارتسمت السكين في عيني ، وكانت ما تزال تقطر دما في يده وصوت الآلة الرهيبة يصم اذني ، واستسلمت لقبضته وانا العن الحرية والحياة والنور وكل شيء ، ولكنني انتهيت بعد قليل ، في لحظة هائلة من الإدراك المرعب ، وانا انتظر ان تقطع السكين رقبتي، ورأيت لدهشتي انه كان يفادر الغرفة ، ويخرج بسبي الى النور من جديد . ثم سار بين صفوف الابنية حتى وصل الى باب من الابواب المعلقة ، وفتحها ودخل ، ثم القى بي خلف حاجز من الحواجز ، واخفى ، بعد ان اغلق الباب خلفه .

ومرت لحظات ، استمدت زمام نفسي خلالها ، ثم نظرت حولي . كان زملائي القدامى ينهمكون في تناول الطعام ، وكنت انا اقف في الزاوية متأملا ذلك الحشد المتصارع ، ناظرا الى نفسي ، والى الباب . لا بد ان ذلك كله كان كابوسا رهيبا ، واسعدني انه انتهى .. ولكن مشكلتي الان هي انني لا اعرف هل كان ذلك كابوسا حقا ام ان ذلك كله كان قد حدث فعلا وانه سيحدث حقا ، سينكرر كما رأيت ، ثم ان النور ما يزال في اوله ، وربما كان ذلك كله وهما من اوام الظلام اللعين الذي لا اعرف لماذا يخيفني كل هذا الخوف ويجعلني احلم بمثل هذه الكوابيس المزعجة . فقد كانت تلك جميعا اشياء غير معقولة ، غير مبررة ، السكين .. والدم النازف .. والسيقان الرافسة .. والآلة الرهيبة ، تلك الآلة الرهيبة بالذات ، كم هي غامضة . انسي ارتجف ذعرا وفزعاً ، وفي الوقت نفسه اشعر بسعادة هائلة لانني ما ازال موجودا بين زملائي القدامى ، والاعوية ملائ بالطعام والشراب ، وزميلة فاتنة من زميلاتي تنظر الي بين حين واخر .. كم هي جميلة .. ان عينها تنسياني كل شيء اخر .. حتى الطعام ، حتى الشراب ، حتى حلم الحرية الرائع ! حتى الكابوس الفظيع ! حتى اولئك الذين قطعت رقابهم في البرميل الدموي . كل شيء حلو مع ذلك . واقتربت من صاحبتى واللهافة المضطربة تشتعل في صدري ، وانا اسمع عيني في عينها الحلوتين .. انيس زكي حسن

صدر اليوم

## معنى النكبة مجدداً

### للدكتور قسطنطين زريق

معالجة علمية رصينة لأسباب النكسة ، ومحاولة جريئة لاستخلاص العبرة من احداثها تبرعت دار العلم للملايين بنفقات هذا الكتاب ، كما تبرع المؤلف بعائداته منه ، على ان يرصد مجموع الدخل لمساعدة الطلاب الجامعيين من ابناء الضفة الغربية .

منشورات دار العلم للملايين - بيروت